سناء

عمر فتال - المغرب

سناء.. سناء.. سناء! نادى في شبه همس، وهو يرهف السمع، علّ أذنيه تلتقطان صوت قدميها الصغيرتين تمسان درجات السلم في تتابع؛ غير أن الصمت المطبق ابتلع نداءه ذاك، فتمدد على السرير شارد البال. إذ اعتادت سناء الطفلة النشيطة أن تكون داخل حجرته بالطابق السفلي، قبل أن ينهي نداءه، حتى ولو كان خافتا، فتلبي حينها طلباته المستعجلة، أو تضع يدها في يده، للذهاب إلى المسجد قبل رفع الأذان، أو للالتحاق بأصدقائه في الحديقة التي تتوسط الحي.

هناك يجلس إليهم، فيتجاذب معهم أطراف الحديث إلى حين، فيما تعود سناء إلى المنزل القريب من هاتيك الحديقة، أو تقبل على الركض في مرح وسرور، بين الممرات المحفوفة بالورود والأزهار، أو اللعب بما تحضره معها من لعب عزيزة؛ حتى إذا ناداها؛ وضعت من جديد يدها في يده، وقفلا راجعين إلى المنزل.

مضى الآن على حضورها الدائم إلى جانبه، ما يزيد على ستة أشهر، عندما غرقت عيناه في ظلام دامس، على إثر فشل العملية الجراحية التي خضع لها بغية إنقاذ النور المتبقي في العين السليمة. يومها شمله القريب والبعيد بأرق عبارات التعاطف، وأحلى كلمات الصبر والاحتساب، وأنبل ألفاظ التشجيع والتحدي؛ وحدها سناء التي نابت يداها ورجلاها عن لسانها، فسارعت إلى تلبية طلباته، وهو على سرير المرض. ولما تماثل للشفاء، وغدا قادرا على الحركة، سارعت في نشاط وحيوية إلى لعب دور العصا البيضاء التي أحضرها من العيادة في آخر زيارة للطبيب؛ فقد غدت رفيقته في تنقله من مكان إلى مكان داخل البيت، ومنه إلى المسجد أو إلى الحديقة أو زيارة بعض الجيران، وهي التي تصف له الأشياء القريبة منه في كلمات قليلة، وهي التي تحدد له مكانه في رحاب بيت الله، ولا تخرجه منه إلا إذا خفت حركة المغادرين.

أما في الحديقة، فتأخذ بيده إلى أن يجلس على الكرسي الذي ألف الارتياح فوقه عندما كانت عينه السليمة تشع بصيصا من النور، حتى إذا حضر

زملاؤه أنبأته بوصولهم، قبل أن تقفل عائدة من حيث أتت، وغالبا ما تستسلم للركض، أو اللعب داخل الحديقة الغناء، إلى أن يدنو موعد الرجوع به إلى المنزل...

في ذلك اليوم تخلص من قبضة غفوة عابرة، وطفق يتطلع لصوت قدمي سناء على درجات السلم، أو البهو الضيق في الطابق السفلي، غير أن انتظاره طال. نادى من جديد نداء متقطعا: سناء.. سناء.. سناء! لكن لا حركة ولا جواب؛ وما لبث أن ركن إلى الهدوء الذي كان يرين على الحجرة، وما حولها.

كادت غفوة عابرة أخرى أن تحكم قبضتها عليه، لما دخلت الصغيرة سناء، وأنفاسها تتلاحق، قبلت جبينه في سرعة خاطفة، ثم أخذت يده اليمنى في هدوء، وراحت تقول بصوت متقطع ملؤه الفرح والغبطة: جدي عبد المغيث المس هذه؛ لا.. بل هذا.. وهذا.. وهذه.. أعرفت يا جدي ما هي؟ أراك تضحك.. لقد عرفتها.. بقيت هذه.. المسها آه.. إنها حقيبة صغيرة.. لا لا.. كبيرة.. لونها بني وأصفر.. إنها تفتح من هنا.. المسها.. إنها جميلة.. جميلة.

في تلك اللحظة دخل والدا سناء، وبعد أن ألقيا التحية، قالت الأم في هدوء: ما هذا الذي فعلت ياسناء؟ ردت الصغيرة في بهجة كاملة: لقد أريت جدي أدواتي المدرسية؛ فما كان من أبيها إلا أن قال متوجها بالحديث إلى والده عبد المغيث: والدي العزيز لقد سجلت صغيرتي سناء في مدرسة النور، واقتنيت لها كل المستلزمات المدرسية.. ابتسم الجد، وما عتم أن قال في خشوع ضارع: اللهم يا نور السماوات والأرض، نور بصيرتها، واشرح صدرها، ووفقها رحمان يا رحيم في دراستها. أنهى دعاءه ثم مد يده عله يلمسها فيقربها منه، إلا أنها كانت قد جمعت أدواتها المدرسية، وصعدت درجات السلم في موكب أفراح حافل..

بعد حديث قصير، انصرف الأبوان. حينها شعر عبد المغيث، كما لو أنه خرج لتوه من غرفة العمليات؛ الظلام الحالك يكتنفه، والصمت المطبق يلفه. لقد حان موعد اللقاء بالأصدقاء في الحديقة.. تراه ينادي سناء، لتأخذه إليهم؟ أيحرمها من التمتع بأدواتها المدرسية؟ أيتغيب اليوم عن اللقاء بأولئك الأصدقاء؟ أيرسلها إليهم معتذراً عن الحضور؟ وما تراه يفعل في القادم من الأيام عندما ينتظم التحاقها بالمدرسة؟ مرت دقائق على تلك التساؤلات المترادفة التي وجد نفسه في لجتها العميقة؛ قبل أن ينتفض، منادياً هذه المرة بصوت أجش، وفي حزم شديد: سناء.. سناء.. سناء! من فضلك أحضري لي عصاي البيضاء!.. قالها، وقد غمرت كيانه بكامله حيوية كبيرة، ممزوجة بإصرار بالغ ■